أمى وكعك العيد !*

الاحتفال بعيد الأم، يصادف الواقع، ويلاقى الدين الذى أعلى منزلتها فى القرآن والسنة، ويتفق والعاطفة التى تملأ حنايا الأطفال والكبار، والرجال والنساء، الشباب والشيوخ .. لا زلت أذكر موقفا لا يفارقنى قط رغم مر السنين .. كنت أجلس إلى أبى الروحى وأستادى صاحب الأفضال التى لا تعد ولا تحصى، الدكتور محمد عبد الله محمد .. المحامى، المفكر، الشاعر، الأديب .. أتلقى منه على الدوام رطبا حنيا، يحرك الماء الآسن، ويشعل الفكر .. مضى بنا الحديث حتى طلب إلىّ أن نقرأ بعضا من أشعاره التى أمضيت سنين عددا فى جمع ما تفرق منها، حتى نشرتها بفضل صديقنا الكاتب الإعلامى الإنسان المرحوم الأستاذ فؤاد شاكر .. أخرجنا له ديوان "العارف"، وتبعاه بديوان " الطريق " .. أمسكت بالديوان الثانى، فوقعت عيناى بالمصادفة على قصيدة بعنوان " كعك العيد " .

كنت مستغرقا فى التلاوة، منصرفاً لضبط الكلمات، متمثلا أبيات شيخى الجليل ..

كانت أمى قبل يوم العيد : تجهز الكعك وكنا نشترك

إلى ثلاثٍ من صبايا العيد : أنا وطفلان وكنا نعترك

مضيت فى تلاوة القصيدة قاطعا ست رباعيات، حتى وصلت إلى رباعية فيها يقول :

---

* المال ٢٠٠٨/٣/٢٤

لم تكن تطلب منا شكرها : حسبها الفرحةُ ما والشرهْ
وقريب يتحـرى سرها : وهى لا تعرف شيئا لم تره
وذلك النور الذى فى عينها : نور من أنتج شيئا كاملا

رفعت عينى عن الصفحات عفوا، قبل أن أستأنف القراءة، فإذا بالشيخ الكبير الذى ناهز التسعين وقد سالت دموعه دافئة حنونة مدرارة، ألجمنى حلال الموقف فلم أنس ببنت شفة .. ومادا فى مقدورى أن أكفكف به عواطف انثالت بمحبة قابعة فى القلب لم تطمرها السنون، فإذا بالشيخ الذى فارقته أمه طفلا فى الثامنة .. منذ أكثر من ثمانين عاما، يتحول إلى طفل يضنيه ألم فراقها والحنين إليها !

تذكرت هذا المشهد الجليل، وأنا أذكر أمى فى عيدها، وأترحم عليها، وأستعيد مشاهد حنانها الوارف، وعطاءها الممدود، وحضنها الدافئ، وكتفها الذى طالما أعطتنى إياه لتساندنى وتقوينى أنا الرجل الكبير الذى عرك الدنيا وعركته، فلم يستغن قط عن دفء حنانها ووارف عواطفها وعطائها.. لم أستطع أن أغنى مع المعنين " يارب يخليكى يا أمى "، وإنما انثالت الرحمات مع الدعاء لها بالمغفرة والرضوان لقاء ما أعطت وما أجزلت !

لست أعرف لماذا كل الأغانى والاحتفالات منسوجة للأمهات الأحياء.. أطال الله أعمارهن .. ولكن كم من يتيم كبير أو غض تحتويه الحسرات وهو يتابع المشهد الغامر بالعواطف الجياشة، بينما أمه غائبة لا تتلقى ما تتلقاه الأمهات من لمسات الاحتفاء والوفاء !.. ظنى أن الاحتفال يفقد كثيرا من معناه إذا لم يلتفت إلى صيغة مناسبة للاحتفاء بالأمهات الراحلات، وكفكفة أشجان اليتامى وأحزان الذين حرمهم الفراق من تفاريح الاحتفال !